رواية

أبي

نجار السواقي

د. محمد ماهر قابيل

الكتاب: أبي .. نجار السواقي (رواية)
الكاتب: د. مُحَمَّد ماهر قابيل
الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

قابيل ، ماهر ، مُحَمَّد
أبي .. نجار السواقي (رواية) / د. مُحَمَّد ماهر قابيل
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١١٧ ص، ١٨ سم.
الترقيم الدولى: ٧ – ٤٠ – ٦٧٧٤– ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٦٦٤٧ / ٢٠١٩

أبي
نجار السواقي
(رواية)

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

الفصل الأول

مازلت أذكر اليوم الذي عيّرني فيه الصغار بحرفة أبي كأنه الأمس القريب. ومن العجيب أن تطفو الذكرى المؤلمة على سطح الذاكرة مثلما تطفو الذكرى المبهجة دون مبررات منطقية مقنعة. ومهما ابتكر الإنسان من أجهزة مذهلة في قدراتها الإلكترونية يظل العقل هو اللغز بطاقته الهائلة، وهو آمر الآلة الجبارة الذي يسيطر عليها بإرادته القاهرة.

إنها خلافته على الأرض. وهو الذي يتضاءل إلى جانبه كل ما يمكن تصوره من منجزات تكنولوجية لأنه صنع الله.

***

كان يوم امتحان. وكنت بميولي المبكرة أحلّق في آفاق الأدب والتاريخ والجغرافيا مع تقديري لكل العلوم. كانت تبهرني حكايات يحكيها أبي بطريقة مشوقة. وكان الخوف يتسلل إليّ من سيرة الخرافات الرهيبة التي يتصدرها الغول والعفريت و"أبو رجل مسلوخة". وسرعان ما يتلاشى خوفي في محيط الأمان الذي يغمره أبي بأحلى الخواطر وأبهاها.

كانت له براعة في الوصف تجسد الشخوص كما لو كانت نابضة تعيش معنا، وتقاسمنا ليالينا. ولم تكن المسافة بين الحقيقة وبين الخيال محددة في ذهني. فكانت ملامح الكائنات تتمثل أمامي، وتتحول إلى بصمات

على وجداني لا يمحوها الدهر. أشاطرها الحزن عندما تحزن، والسعادة إذا أشرقت في الخاتمة كشمس الضحى ساطعة متألقة.

أحببت العنزة وأولادها الثلاثة، وكرهت الذئب الذي تسلل ينتهز غيابها ليفترس أبناءها. واجتاحني السرور للفطنة التي بدت من هؤلاء الأبناء في صد الوحش المحتال.

وتعاطفت مع العصفورة حارسة الكمّون التي سافرت إلى استانبول في رحلة بحرية على سفينة، وهي تحن لأمها.

وكوّنت فكرة عن البطولة. فربطتها بالفتوة ثم بالسطوة ثم بالتضحية قبل أن أدرك أن البطولة هي الثبات على المبدأ مهما كانت التكلفة.

وقصّ عليّ أبي قصص الأمثال:

السر المشترك في "دفنّاه سوا" عندما أهال النصّابان التراب على الحمار الميت، وأقاما عليه مقاما، وتقاسما نقود صندوق النذور. ثم اختلفا فأقسم أحدهما بصاحب المقام فأجابه شريكه بذلك المثل.

والخيار المستبعد "في المشمش" عندما قال أحد البائعين للآخر الذي يلتهم العنب: كل حبة حبة. فردّ بذلك المثل.

وكيف "عدم ماله من حكّم الناس في حاله" عندما احتار الرجل وابنه في تعليقات المتطفلين: إذا ركب الأب حماره كان متسلطا، وإذا ركب الابن

كان عاقا، وإذا ركبا معا كانا قاسيين، وإذا لم يركبا كانا أحمقين. فهما إذن مدانان على البدائل الأربعة في نظر الذين يتصيدون اللوم!

وقد اتخذت ذلك المثل علامة من العلامات الهادية لي. فلم أحفل بقيل وقال على مدى حياتي.

ولماذا كان "أول الطرح نطح" عندما زرع مزارع الحيوان بدلا من النبات في كوميديا فولكلورية فعثر بجذر حسبه قرن جاموسة فقال ذلك المثل.

والحذر"غراب ابن غراب" الذي ورث الدهاء بالغريزة عندما قال له أبوه: إذا انحنى ابن آدم فلابد أن تطير على الفور لأنه قد يلتقط حصاة يقذفك بها. قال الابن: وإن كانت في جيبه؟ فردّ الأب بذلك المثل.

و"لسانك حصانك" باستلهام ظاهرة الصدى في التربية عندما قال الأب لابنه: شتمت فسمعت الشتم، ولو قلت حسنا لسمعت حسنا.

و"آخر خدمة الغز علقة" الذي يقرر مآل كل خائن يكون عميلا فيزدريه العدو، ويضربه بعد أن يستخدمه.

***

وكنت أفسّر وأستفسر. وأجد في حلم أبي ما يدفعني إلى الاستزادة. فلا أترك شاردة ولا واردة دون أن أمحصها وأجلوها.

وعلمني أبي ألاّ أسترسل في المجادلة.

فعرفت أين أقف، ومتى أسكت.

***

كان أميا. لكنه كان مثقفا ثقافة سمعية أضافت إلى خبرته وتجاربه. وكنت أسهر معه، وأشرب الشاي الغامق المشبع بالسكر المغلي على نار الحطب، وأنصت بالعرفان لنصائحه الغالية:

ـ حافظ على الصلاة

وأخلص النية لله

وحده دون سواه.

واحتسب له ما تبذل من العطاء

وما تلقى من البلاء

واقنع بما يكفي من الرجاء.

ولا تتطلع إلى الجزاء إلاّ منه

ولا إلى الحكمة إلاّ عنه.

كل فرصة لعمل الخير تمر بك هي رسالة من الله.

فلا تترك رسالة الله بغير جواب.

لا تعامل الخلق بأخلاقهم بل بأخلاقك.

ولا تقايض بالحسنات

ولا تستخف بالهفوات

ولا تبتغ الثواب من المخلوق في ملكوت الخالق

ولا تسترض الزائل بما لا يرضي الباقي.

ولا تحتقر

حتى التراب الذي تمشي عليه.

فمصيرنا يا ولدي إليه.

***

وكان يحفظني أسماء الشهور القبطية. وهي التقويم المصري العريق الذي يقسّم عليه الفلاحون مواسم الزراعة. فيمسك بأنامل يمناي الرقيقة بين كفيه، ويعد عليها بتؤدة:

توت، بابة، هاتور، كيهك، طوبة، أمشير، برمهات، برمودة، بشنس، بؤونة، أبيب، مسرى.

ويردد الأمثال المأثورة لتلك الشهور. ومن بينها:

"توت: تروي ولا تفوت".

لا تدعه ينقضي دون ري.

"بابة: ادخل واقفل البوابة".

للوقاية من طقسه.

"إن صح زرع بابة يغلب النهّابة، وإن خاب زرع بابة ما يجيب ولا اللباب".

والنهّابة هم من يتزيدون في الأخذ، ويغلبهم أي يربو على ما يأخذون. أمّا اللباب فهو ما بجوف الخبز.

"هاتور: أبو الذهب منثور".

والذهب يعني القمح.

"إن فاتك هاتور اصبر لمّا السنة تدور".

يحضّ على أن تغتنم أوان مرّة في العام.

"كيهك: صبحك مساك".

إشارة إلى قصر نهاره.

"طوبة: يجعل الشابة كركوبة"!

لصقيعه القارس.

"الاسم لطوبة، والفعل لأمشير".

ويرمز للعنوان البارد على الفعل العاصف.

وطالما استدعيت ذلك المثل كلما صدمتني التناقضات.

عندما تكون الأسماء مثلجة

والأفعال عاتية الأعاصير!

"أمشير: يأخذ العجوز ويطير".

لهبوب رياحه.

وإن كنت لا أدري: لماذا يأخذ العجوز بالذات؟

هل لخفة الوزن نسبيا بالضمور في الشيخوخة؟

أم يطير كناية عن الرحيل؟

"برمهات: رح الغيط وهات".

لحصد محصول الشتاء.

"برمودة: دق العامود".

والعامود هي السنابل.

"بشنس: يكنس الغيط كنس".

لخلو الحقل من الغلة.

"بؤونة: تنشف المياه من الماعون".

لحرارته المجففة.

"بؤونة: تخزين المونة".

يدّخرون فيه زادهم.

"أبيب: أبو اللهيب".

لقيظه الحارق.

"أبيب: فيه العنب يطيب".

فيكون قطافه.

"مسرى: تجري فيه كل ترعة عسرة".

لفيضان النيل الذي يعم على فروعه. وعسرة تعني شحيحة الماء.

***

وعندما تعلمت القراءة صرت قارئا نهما ألتهم ما أجده من كتب في مكتبة المدرسة مستعيرا منها أو جالسا فيها، منكبا على أوراقها، منصرفا إليها عن اللعب مع رفاقي حتى كنت لا أكاد أعرف كرة القدم التي يعشقونها، ومباريات الفرق التي يتعصبون لها.

وتمددت الفجوة بيني وبينهم.

واستفحلت معاناتي.

إن للكتب لغة، وللشارع لغة. وقد قادني العكوف على المطالعة إلى إجادة لغة الكتب على حساب لغة الشارع التي يجيدها المندمجون فيه. فكنت أتحدثها بلكنة من لا يتقنها.

وأرهقتني المفارقة، وعذبتني. إذ استغل الأشقياء نقطة ضعفي تلك في مآزق ومشكلات.

وللواقع سلطانه

ولو كان على باطل.

والمستضعف مهزوم في الأجل القصير

ولو كان على حق.

***

بدأت بقصص الطفل فنهلت منها. وشدّني التراث لاسيما "ألف ليلة وليلة" بروائعها الخالدة، وبتماديها في الشطط الذي لا ينتسب إلى مؤلف. وشغلني المصباح والخاتم والخادم المطيع. وركبت أحلامي بساط الريح لتطير عليه إلى واد حجارته من الماس والياقوت والزمرد في العالم الذي صوّره من استسهلوا حل العقدة بالعثور على كنز.

وانتظرت بفطرتي البريئة أن أعثر بدوري على كنز!

ولم لا؟

أليس من حقي أن يكون لي كنزي الذي يحقق الأماني:

القصر والخدم والحرس؟

وعندما تقدمت في العمر

أدركت أن الكنز هو الإيمان

وليس اللؤلؤ والمرجان

وأن نعمة الله علينا

أكثر بكثير

من كل كنوز الأساطير.

***

كنت حريصا على إتمام تكليفاتي. ولم يكن الحرص لأن المدرسة كانت باب المستقبل وسلم الصعود فحسب، وإنما أيضا لطبيعتي أيا كان ما ألقاه في سبيل ذلك. فكنت أصر على أن أصل إلى خط النهاية في الشوط. وكان الثمن هو التعب.

والطبع والروح في جسد.

لا يخرج الطبع

إلاّ بعد أن تخرج الروح!

***

كنا بضعة تلاميذ:

حسن ابن ناظر المدرسة. وكنا قد ترشحنا معا في انتخابات مجلس الفصل فحصل على أغلبية الأصوات. ليس بالضرورة لأنه ابن الناظر، وإنما على الأرجح لشخصيته الجذابة الآسرة.

وكان والده الأستاذ عبد التواب الأيوبي رجلا وقورا كريما. يهابه من يعرفه حبا وإجلالا. ينتمي لعائلة تعود بأصولها إلى شبه الجزيرة العربية التي قدم منها أجداده إلى مصر ضمن موجات الهجرة التالية للفتح الإسلامي عندما كانت الوحدة قائمة تحت راية الخلافة. وكان الذهاب من قطر إلى قطر مباحا بلا قيود في إطار الأمة الواحدة.

كان يدرس لنا مادة التربية الدينية. وكانت له لازمة من الألفة تزيل الكلفة، وتزيد من احترامنا له. وكان يسعد بمناقشاتي التي تتطور إلى ما يشبه المناظرة بينه وبيني! وكان يجيد الخطابة، ويقرض الشعر، ويخصص قاعة واسعة لمجلداته القيمة التي يقتنيها كنت أراها في زيارتي لحسن، وعندما يرسلني الناظر إلى البيت لإحضار شيء. لكنه لم يكن معنيا بنشر إنتاجه.

وذلك قدر العديد من الكتّاب الموهوبين.

ومحمود ابن الصول حسنين. وكانت والدته السيدة انتصار الحلواني مدرسة. فكانت تعينه بشرحها على التحصيل. وأغرته العناية المنزلية بمنافستي على الأولوية فلم يتمكن. إذ احتفظت بها مع مسافة فاصلة في الدرجات بيني وبينه. كان منطويا يرتبك في سائر المواقف حتى التي يسهل التعامل معها، ويتلعثم باضطرابه الذي لا يستطيع معالجته.

وصلاح ابن الحاج المتولي شيخ البلد. وكان والده محروما من الخلف لفترة. فكانت فرحته بصلاح استثنائية حتى ظل أهل القرية يشيدون بالاحتفالات الباذخة التي أقامها شيخ البلد لميلاد نجله. ونشأ مدللا لا يرد له أبوه طلبا. ومع ذلك لم يفسده الترف فكان يصلي الفجر حاضرا في جماعة بالمسجد، ويصوم الاثنين والخميس منذ نعومة أظفاره.

وسمير ابن الصرّاف. وكان شديدا ممتلئا مفتول العضلات. وكان أمهرنا في تسلق النخلة العالية التي تتوسط فناء المدرسة، وشجرة الجميز

العتيقة الواقعة على ناصية الحارة. أمّا شجرة التوت الباسقة على الشاطئ فكانت ثمارها فاكهة مجانية يتحفنا بها.

وخيري ابن الشيخ الغريب معاون العمدة. وكان جميل الصوت، يرتل القرآن بعذوبة. وكانت له صولات وجولات. لا يباريه أحد في تقليد المطربين، وفي أداء المواويل. وحاولت أن أحاكيه فشهدوا له.

وقال لي:

ـ إلاّ الغناء. لعبتي!

***

وكان معلمنا الأستاذ علي ليلة قد جمع أوراق الإجابة، وطاف عليها بنظرات سريعة، ونثر تعليقاته الطريفة:

فشبّه ابن الناظر بالشبل الذي يجب أن يكون على شاكلة الأسد. وكان التشبيه بليغا. فأطرق حسن في حياء.

وبشّر ابن الصول بالحبس في حجرة الفئران! وهي حجرة وهمية لا وجود لها إلاّ في ابتساماتنا الغضة.

وتنبأ لابن شيخ البلد بخصم جزء من مصروفه إذا أخبر أباه بإخفاقه في امتحان من الامتحانات التالية.

وأنذر ابن الصرّاف بحرمانه من حلوى جوز الهند التي كان يوزعها علينا في المناسبات.

وأعطى لابن معاون العمدة صفرا مع الأسف والوعد بمتابعة خاصة له تخرجه من ظلمة الفشل إلى نور النجاح.

حتى جاء دور ورقتي فنظر إليها بإعجاب ثم انتقل بعينيه إليّ وقال:

ـ ما شاء الله. زادك الله من فضله يا بني.

***

لم أتصفح وجوه زملائي لأستطلع الأثر عليهم فلم يكن التباهي من صفاتي. والله لا يحب كلّ مختال فخور.

كنت أردد المعوذتين كلما انتابتني الوساوس التي ما انفكت تعاودني. وما كنت أرضى بأن يهوي ظني على منحدر الإثم إلى هاوية شر الحسد الذي أبيت أن أرميهم به.

***

كان الأستاذ علي نموذجا فريدا.

لا يحمل عصا. ولا يفلت لسانه بنابية. كان يشجعنا، ولا يعاقبنا إلاّ بعباراته الرشيقة التي ينتقيها.

وكان مرحه المهذب يفعل فينا فعل السحر، ويخجل المخطئ من الخطأ، والمتجاوز من التجاوز.

***

وكان الامتحان هو الحديث الذي احتدم بينهم. فتداولوا فيه. واستعرض كل منهم حيثياته:

من الأرق الذي بعثه القلق.

إلى صعوبة الأسئلة.

إلى الانشغال في شأن.

إلى المفاجأة غير المتوقعة!

إلى الغموض الذي حجب الفهم.

ومضوا على هذا النحو ينبشون ويفتشون حتى ربت حسن على كتفي بغيظ وهو يقول:

ـ والله ونفعت يا ابن نجار السواقي.

وانفجروا ضاحكين، وتتابعت قذائفهم:

فقال خيري إن أبي يدق في رأسي مسامير الذكاء.

وأشار سمير إلى أنني أدور في ساقية المذاكرة.

وصاح صلاح:

ـ صفقوا لابن نجار السواقي!

وسمّاني "المنشار".

وختم محمود سلسلة الإساءات بأن ذكّرني أنها مجرد أيام أقضيها حتى أضطر إلى اللحاق بأبي في حرفته.

***

تداعت المعاني متراكمة كأنها بناية شاهقة تنهار لتوها بزلزال فتثير الغبار الكثيف الذي يلوث أنفاسي، ويوشك أن يخنقني. وكادت الدموع تطفر من عينيّ لولا مانعة العزة. وتوالت الأسئلة الجاحدة مترادفة كخيل تتوازى وتستبق في سباق محموم:

ـ لماذا أكون ابن نجار السواقي؟

لماذا لم أكن ابن العمدة أو شيخ البلد أو ناظر المدرسة؟

لماذا لا نكون من الأسر الغنية؟

لماذا لا نتساوى في الرزق معهم؟

لماذا لا تكون دارنا مثل دورهم؟

لماذا نكون معدمين؟

لماذا لا نملك كما يملكون؟

لماذا لم يتعلم أبي؟

***

ولو أنني وقتها كنت كبيرا ناضجا لالتمست لهم العذر فيما تفعله الغيرة بالبشر، ولتخلصت بعد قليل من تأثير إهاناتهم لي. لكنني كنت حدثا ساذجا. ولم يكن لديّ في مواجهة هجومهم إلاّ صمت العجز تشدني إليه وداعة كنت معروفا بها منذ أن تفتحت عيناي على الدنيا. فلم أكن أستطيع الدفاع إزاء ما أتعرض له. وكان ذلك يغري الصبية بإيذائي. وعندما يفيض بي الكيل كنت أشكو إلى المدرس فينهاهم حتى قال لي:

ـ إن الظالم هو الخائب.

وقد خاب من حمل ظلما.

والمظلوم هو المنصور بقسم الله.

فالعدل اسم من أسماء الله.

والله لا يحب الظالمين.

ومن لا يحبه الله يخسر الأولى والآخرة.

والله منصف المظلوم.

يستجيب لدعائه.

ومن كان الله ناصره فلا غالب له.

ولا معية أفضل من معية الله.

فلا تفتقد الشراسة

ولا تنفر من طيبتك.

طوبى لمن بات مظلوما

ولم يبت ظالما.

***

ونزلت كلمات أستاذي عليّ نزول قطر الندى على رمال الصحراء.

لكن تلك المرّة تعلقت بأبي.

كان العدوان عليه

والاستهزاء به

والسخرية منه.

وللأب بين الضلوع مستقر.

فلم أحتمل فيه ما كان من الممكن أن أحتمله في نفسي.

***

أحسست بطول الطريق على غير العادة كأنما يوشك ألاّ ينتهي. وتضافرت عليّ الهموم حتى سرت أجر قدميّ لا أقوى على تصرف أو رد.

وعندما وصلنا إلى الجسر تفرقنا كل إلى بيته. وحينئذ أطلقت لدموعي العنان فسالت غزيرة متلاحقة كالمطر تغسل كربي بماء لا يخفف الأسى بل يغرقه في بئر الذلة.

***

وفي الدار استقبلتني أمي مروّعة. كانت الخطوط التي رسمها البكاء ظاهرة على خديّ. وكانت المخلاة الرخيصة المصنوعة من القماش على هيئة حقيبة تتدلى ساقطة من ذراعي. وتهدل كتفاي، وانتكست خطواتي كمن فقد ما لا يمكن استرداده. وبحدسها الذي لا يكذب شهقت أمي وهي تقول:

ـ يا ابني!

واحتبست الكلمات على شفتيها في محبس القلب الذي انفطر لمشهدي.

واستمر سوط الصمت لحظات يجلدنا بالكتمان الذي تشبثت أنا به، ولم تصبر هي عليه. فتبعثرت علامات الاستفهام من فمها بلا جدوى، وهي تتخبط بين مختلف الاحتمالات:

من الناظر

إلى الأفندي

إلى زملائي

إلى عابر سبيل صادفني.

أيهم نكّل بي؟

***

كانت أمي من نساء الريف اللواتي يصنعن الملاحم بعزائمهن في بساطة. وإذا كانت المادة في قواعد القانون الطبيعي للوجود لا تفنى ولا تستحدث فقد كن يبرهن على إفناء العجز بمعجزاتهن، وعلى استحداث المادة من لاشيء! والمدهش أنهن كن يعتبرن تلك الخوارق من المهام العادية الواجبة عليهن.

كانت تربي الدجاج والحمام والبط والأرانب. وتطعمها من حشاشات البرّية فلا يكون قوتها عبئا على الأجر الزهيد الذي يناله أبي بكدحه المتواصل.

وكانت تطحن وتعجن

وتخبز وتطبخ

وتبيع وتشتري

وتقتصد وتوفر

وتحرز بطاقة التموين

في حرز مصون.

كانت تقص الصوف من جلد الغنم، وتغزله بمغزلها الخشبي، وتنسجه رداء يحميني بالدفء. وكانت أصابعها تعمده برحيق الأمومة الذي يحيله إلى وسام على صدري.

***

وجاء أبي. والتفوا على الحصيرة حول الغداء. وأقبل أخي سلامة وأخواتي الثلاث: خديجة وفاطمة وسكينة بشهية على الطعام. أمّا أنا فتعللت بعدم الجوع. وحاولت أن أهرب من أحزاني بمراجعة دروسي فلم أستكمل فقرة واحدة.

وسقطت العبرات على الصفحات

تبثها شجونها

وتذيب في أنينها

سطورها.

أجبت أبي بتمتمة تداري ما لا يريحني أن أفصح عنه.

وكيف أقول له إنهم يعيّرونني بك؟

وكيف أجرؤ أن أصارحه

بما يحرجه ويجرحه؟

وسئمت كآبة الجدران

والسقف المتهالك

والعيدان الملصوقة بالطين

والفرن البائس

وشعلة الجاز

والملابس الرثة.

وثقلت عليّ معيشتي

وضاقت بي الدار

فخرجت إلى الحقول

ألتمس بين أحضانها العزاء.

الفصل الثاني

سرت على حافة الترعة وقتا غير قصير أغالب نفسي حتى غلبتني فعدت إلى دموعي أذرفها رغما عني. وبدأت دورة الفلك تميل بالشمس بعد العصر إلى الغروب، وهدير ماكينة الطحين يتناهى إلى أذنيّ من الضفة الغربية خافتا متقطعا كأنه أنين.

كانت الماكينة مملوكة للحاج طه جودة أحد أقاربنا. وكان يملك الوكالة والمعمل والحديقة التي سمّوها الحمراء لأنه أحاطها بسور أحمر اللون، وجعل منها جنة بما جلبه إليها من شجر الفاكهة على تعدد أصنافها. ولم تكن تصلنا به صلة حميمة إذ كان فقرنا يسدل ستاره على العلاقة ليقيم حاجزا صلبا بينه وبيننا. وكنت قد تحدثت إلى أبي في ذلك لا طمعا في مال، ولكن تعجبا بفطرة خالصة من قطيعة غير مبررة. فقال إن الغنى في الاستغناء. أمّا الواجبات فإنه يحرص عليها في حدود الكرامة. فيزوره زيارة سريعة إذا ألمّ به عارض صحي، ويعزيه إن أصابه مصاب. ويكتفي بذلك في أضيق الحدود تحسبا لاحتمالات إساءة الظن.

***

وتحوّل المنظر بأسره في نظري إلى مأتم ينعي سعادتي. وتضافرت الأصوات في معزوفة جنائزية تشيعني إلى منتهى مبكر لم أتوقعه، ولم أحسب له حسابا من قبل.

كانت الطبيعة الخلابة على ساحة البساط الأخضر الممتد جامعة لروافد التأمل وما يمكن أن تنطوي عليه من استسلام بلا قيد ولا شرط لجيوش الشجن الزاحفة على مقاومة ألقت سلاحها رافعة رايتها البيضاء التي نكسها القدر. وتراوحت أسراب الطيور تحلق على ارتفاعات منخفضة، وتحط في سلام تحت مظلة سحب تحنو على كائنات بريئة

لم تعق والديها

ولم تلوث مياه النيل

ولم تتسبب في بكاء أحد

كما كان المصريون يرددون مبتهلين في تراتيلهم القديمة ليقروا براءتهم من الخطايا الجسيمة.

وازداد نحيبي.

لماذا يتسببون في بكائي لمجرد تفوقي في الامتحان؟

لم تبدر مني إساءة لأحد.

فلماذا؟

لماذا يعيّرونني بحرفة أبي؟

***

زقزقت العصافير في ذهابها وإيابها غير مبالية بما حولها. فأحسست نحوها بشيء من الغبطة. إنها تعيش حرة طليقة مستعلية على الصغائر والنقائص التي تشوه حياة البشر.

ونعقت الغربان نعيقها الكئيب الذي يبعث على الانقباض، وكأنها تشاطرني بشؤم حضورها أحزاني. ومكثت أراقبها فرأيت ما أذهلني. إذ التقت مجموعة منها إزاء غراب وقف صاغرا مهيض الجناح كمن اقترف زلة. وتعالت صيحاتها متداولة كأنها تحاكمه. ثم انقض بعضها عليه فجرده من ريشه في عقوبة صارمة تحرمه من الطيران!

لم أعرف الخطيئة التي ارتكبها لكنني شهدت مشهد الحساب الذي خلص إلى إقامة الحد بالعدل.

إنها أمم أمثالنا.

بل إنها قد تسمو علينا لأنها تتصرف بغريزة يحددها القانون الطبيعي الذي لا تضعه الأهواء.

ألم يعلم الغراب ابن آدم القاتل كيف يواري أخاه؟

فمن إذن يعلم الأولاد كيف يمتنعون عن الإساءة إلى أخيهم؟

***

ووقفت على ساقية حمودة بومة تنظر إليّ بثبات كما لو كانت سوف تسألني عن حالي.

كان أبي يرمم تلك الساقية. وكنت معجبا بمهارته في العمل الذي ورثه عن جدي، ولم يعمل سواه.

ولبثت على جمودي برهة تعاودني نوبات البكاء فأرضخ لها إلى حد التشنج. واختلج جسدي لفرط انفعالي حتى استنفدت طاقتي على النشيج فهدأت قليلا دون أن تبرد النار المشتعلة في قلبي. ومشيت ناحية الجرن في اتجاه حوض السقاية مسافة طويلة بين أرض العمدة وبين شونة الحبوب التي كانت مغلقة إلى أن صادفني الشيخ عبد الحميد المنياوي.

كان الشيخ عبد الحميد هو إمام المسجد الأكبر بالقرية الذي بناه العمدة الراحل على نفقته منفردا دون أن يقبل أية مساهمة معه من أعيان المنطقة وأكابرها. ثم أضاف إليه ابنه العمدة التالي بعد وفاة أبيه مئذنة تطاول مآذن جوامع المركز. وألحق به مجمع خدمات من طابقين يقدم الرعاية المجانية الطبية والتعليمية لأهل القرية. ففي الطابق السفلي كان المستوصف يتيح العناية العلاجية بلا مقابل على الحد الأدنى من الضرورة في التخصصات الحيوية. وفي الطابق العلوي كانت الدروس الخصوصية بغير أجر على شكل مجموعات تقوية مقرونة بقرص منحة من المعمول الذي يحشوه التمر.

أمّا في شهر رمضان فكان الشيخ عبد الحميد قوّام مائدة الرحمن العامرة للصائمين من المحتاجين وعابري السبيل الذين يؤذن عليهم المغرب بعيدا عن بيوتهم ولو كانوا من القادرين على التقاليد الإسلامية. وكانت المائدة في كل سنة حافلة بما لذ وطاب. إذ كان العمدة يصر على أن يطعم ضيوفه من أوسط ما يطعم أهله امتثالا للأمر الإلهي.

وفي المناسبات الدينية كعيدي الفطر والأضحى كان الشيخ عبد الحميد هو المشرف على ذبيحة العمدة في ساحة المسجد أو في الدوّار لتوزيعها بالقسطاس دون تفرقة.

كان الشيخ عبد الحميد قد تخرج في الأزهر. وحصل على العالمية التي لم يحصل عليها طالب للعلم من أهل القرية سواه. وكنت أنتظر الجمعة كي أسعى إلى المسجد متوضئا قبل أن يصعد على المنبر. وأتخير زاوية متطرفة دانية منه. وتظل عيناي معلقتين بشفتيه وهو يلقي الخطبة برصانة، وبلا مكبر للصوت كذاك الذي يستعملونه في المدن. كان يستشهد بالآيات الدالة على سبيل الله. ويبين للمصلين ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ببلاغة عذبة.

وكان مما يقربه إلى قلبي أنني حفظت عليه في إجازة الصيف جزءا من القرآن. فما من مرّة جلست إليه آخذ العلم عنه إلاّ دعا لي، وأثنى عليّ بما أحب. وكانت لثنائه قيمة خاصة في تقديرنا جميعا لا لمقامه فحسب، وإنما أيضا وبدرجة لا تقل أهمية لأنه كان رجلا جريئا واضحا مستقيما، لا يناور

ولا يداهن، ولا يخاف في الحق لوما مهما كانت العاقبة. فكانت شهادته التي لا تعدلها شهادة في البلدة مختومة بخاتم شجاعته.

وكان من الدعاة الذين يؤثرون الترغيب على الترهيب. فكان يكثر من عدّ نعمة الله لا يحصيها، ويحضّ على التقوى التي تفتح باب الفرج، وتوسع على العباد الرزق من حيث لا يحتسبون. حتى قال عنه أبي إنه يبشر الطائعين بالجنة عشرين مرّة، وينذر العاصين بالنار مرّة واحدة!

وفوق ذلك كان ودودا مهذبا لا يستكبر أن يحيي الكبير والصغير، ولا يردّ سائلا، ولا يكسر خاطر إنسان على الإطلاق مستلهما في ذلك الخلق العظيم من القرآن الكريم.

وكان أهل القرية يكبرونه حتى لتنفذ كلمته فيهم عن طيب خاطر. فهو عندهم حجة الملة وقاضي المنازعات الذي يغني عن الذهاب إلى محكمة. وكم من أزمة احتدّت بينهم إلى حد الخصومة التي تهدّد بإراقة الدماء. فما يكاد الشيخ عبد الحميد يهل على المتشاحنين حتى تطيب النوايا فيقبلون عليه راضين بحكمه. ولا يتركهم إلاّ وقد تعانق الذين كانوا على وشك الاقتتال قبل قدومه!

بل كانوا يسعون إليه ليفصل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون حتى ساد بينهم قول معروف:

"نروح للشيخ عبد الحميد".

وكأنه صك الخروج من المآزق.

إذ كان يوفر عليهم بسعة أفقه تكاليف التقاضي وأتعاب المحاماة ومثالب العناد الذي يورث الكفر والعياذ بالله.

كانت له طلعة بهية بعمامته المحبوكة، وزيه الأنيق، وشاربه المحفوف، ولحيته الخفيفة، وبشاشته الجاذبة، وسماحته الآسرة، وزهده الأصيل، وورعه العميق كما ينبغي للعالم أن يكون. فما من إطلالة أطلّها على موقف إلاّ كانت فصل الخطاب، وعين الجواب.

بادرني الشيخ عبد الحميد بالسلام. واسترعى انتباهه ما يظهر على وجهي من أسى فسألني عما أفعل في هذا المكان. فاستحيت أول الأمر أن أصارحه بما يعتمل في داخلي حتى استطاع بلباقته أن يحملني على الإفصاح.

وبعد أن فرغت من حديثي ابتسم الرجل في أسف ثم دعاني إلى مجالسته على مصطبة. وأشار بإصبعه إلى الحقول المترامية قائلا:

ـ أترى هذه الحقول؟

قلت بمسحة من الدهشة:

ـ نعم.

استطرد يقول:

ـ من أين يأتينا طعامنا؟

قلت بنبرة تلميذ يجيب أستاذه:

ـ منها يا سيدنا.

قال وهو يحرك قبضته:

ـ ومن أين تروى الحقول؟

قلت بتحصيل الحاصل:

ـ من الترعة.

واصل أسئلته كممتحن رفيق بقوله:

ـ وما الذي يأتي إلى الحقول بماء الترعة؟

قلت ولم أستشعر بعد الحكمة في استجوابه لي:

ـ السواقي.

قال بلهجة المعلم:

ـ فتح الله عليك. فإذا انكسرت السواقي أو تعطلت؟

لم تكن إلاّ إجابة واحدة لكنني بدأت أدرك أنه يريد أن يستدرجني إلى فكرة ما في ذهنه فقلت:

ـ تجف الحقول.

صوّب الرمية إلى الهدف بقوله:

ـ وإذا جفت الحقول؟

قلت وأنا أبسط يديّ بإشارة لا إرادية:

ـ لا ينبت الزرع.

أدار دفة الحوار إلى غايته قائلا:

ـ وكيف حينئذ نقتات؟

قلت وقد خلت جعبتي من رد:

ـ لا أدري يا سيدنا.

قال بفرحة المنتصر:

ـ لكن أنا أدري.

إننا حينئذ سنقتات على طول لسان زملائك!

حدّقت في وجهه فوجدته يزم شفتيه متهكما كمن وصل إلى اكتشاف يحل به مشكلة صعبة. وانفرجت أساريري وهو يقول:

ـ أجل.. أجل.. فسلاطة ألسنة حسن ومحمود وصلاح وسمير وخيري تغنينا كل الغنى عن القمح والذرة والفول والأرز والقطن. فإذا كفّ أبوك عن صنع سواقينا وإصلاحها فما علينا إلاّ أن نلجأ إلى هؤلاء الأطفال لنجد في هذرهم ما يطعمنا ويكسونا!

ساد بيننا صمت ناطق بالمعاني ثم واصل الشيخ قائلا:

ـ اسمع يا بني:

إن عقلك يسبق عمرك. وستتعلم بإذن الله حتى تصبح رجلا نابها ذا شأن. وستصادف الأخيار والأشرار، والأبرار والفجار. فاذكر دائما أن سياجك الحامي في كل مكان وزمان أن يكون لك من دينك وبصيرتك ما يهديك إلى الحق، ويردك عن الباطل. أمّا التأثر بكلام هذا وذاك فلن يفعل إلاّ أن يشوش عليك أمرك، ويعوقك عمّا تبتغيه من نجاح.

لقد كان أنبياء الله صفوة الخليقة، ونخبتها المختارة. ومع تلك المكانة الفريدة التي لا ينافسهم فيها منافس كان منهم من يعمل في حرف بالغة البساطة مثل رعي الغنم. تلك التي يراها المغرور لا تليق بغروره. ورغم ذلك اتخذها أنبياء مرسلون وسيلة ليعيشوا. وكم آذاهم السفهاء بالهزل والاستهزاء لكن نورهم المستمد من ضياء الرحمن ظل بعدهم هدى للعالمين. فاحذر يا بني أن تحتقر عملا يبدو هينا. إن المال مجرد أداة لا تشرف العبد، ولا تشينه. ولا يعيب المرء إلاّ رذيلة يصر عليها، ولا يتوب عنها.

قلت بقلق الضال في متاهة يلتمس الدليل:

ـ ربما يسخر الأولاد من أبي لأنه لم يتعلم مثل آبائهم.

قال بهدوء:

ـ إن أي علم يحصله الإنسان ليس سوى قطرة ضئيلة في محيط المعرفة الإنسانية.

والمعرفة الإنسانية بدورها ليست سوى قطرة ضئيلة في محيط معرفة الله سبحانه وتعالى.

إنك تتعلم.

وستتعلم أكثر وأكثر إن شاء الله.

فاذكر أن المرء كلما ازداد علما كلما ازداد وعيا بقلة ما يعلم بالنسبة إلى حقائق الكون وأسراره.

إن المعلومات التي ترد علينا تصير إلى النسيان. ولا يبقى من التعليم إلاّ القدرة على التفكير السليم.

وكل علم لا يثمر المزيد من التواضع وكرم الأخلاق في صاحبه هو علم زائف لا قيمة له.

***

هبط هدهد على حفرة يلتقط رزقه، واسترسل الشيخ يقول:

ـ إن ناظر المدرسة يشرف على تعليمكم

والمعلم يعلمكم

والعامل ينظف مدرستكم

والعمدة يتولى أمرنا

وشيخ البلد يرعى مصالحنا

وشيخ الخفراء يرأس خفراءنا

والخفير يحرسنا

والجندي يحمينا

والطبيب يعالجنا

والممرض يمرضنا

والصيدلي يداوينا

والمحامي يباشر حقوقنا

والبنّاء يبني بيوتنا

والسائق ينقلنا بالسيارة

والميكانيكي يضبطها

والتاجر يبيع لنا السلع

والفلاح يزرع أرضنا

ونجار السواقي يصنع سواقينا.

فأي هؤلاء يمكن أن نستغني به عن الآخر؟

إنما يعيب المرء انحرافه

ولا يعيبه أن يفوته قطار التعليم رغما عنه.

قلت وقد بدأت جحافل الراحة تطارد فلول التعب في دخيلتي:

ـ لعلهم يبغون بغناهم على المساكين.

قال وهو يعتدل في جلسته:

ـ إن المؤمن يا بني يملك العالم.

تلك خلاصة الحكمة

فضعها نصب عينيك

لا تضيعها

ولا تفرط فيها

عندما يأخذ ما يكفيه دون طمع

ويحقق ما يستهدفه دون جشع.

قلت بقلق:

ـ هل التفاوت مكتوب علينا؟

أين المساواة إذن؟

أجاب بصبر يقول:

ـ الكل سواء في الوقت.

الكل سواء في الموت.

لم أجد إجابته شافية فقلت:

ـ لكننا لا نتساوى. لا نتساوى فيما نملك مثلا.

قال وهو يخرج مسبحته من جيبه:

ـ الدنيا ممر

والآخرة مقر.

فلا تكترث بالذهب والفضة إذا كانت لديك الكنوز الثلاثة التي لا تعدلها كنوز العالم مجتمعة:

التقوى والعلم والعمل.

قلت والمرارة مازالت على لساني:

ـ كيف أطمئن والأذى يتربص من كل ناحية؟

أشار بيديه إشارة إحاطة وهو يقول:

ـ يتوهم الجاهلون أن العشوائية سنة الحياة

وأن الأمور تجري في أعنتها كيفما اتفق بلا نظام.

يرون الموازين الظاهرة الخادعة

ويغفلون عن الموازين الحقيقية القاطعة.

تشغلهم المقدمة العاجلة

وتصرفهم عن النتيجة الماثلة.

لم أستوعب ما يقصد فقلت:

ـ لا أفهم يا سيدنا.

قال شارحا:

ـ في الميزان الظاهر يبدو أن السارق هو الكاسب.

في الميزان الحقيقي السارق هو الخاسر.

في الميزان الظاهر يبدو أن الآخذ هو الفائز.

في الميزان الحقيقي المعطي هو الفائز لأن اليد العليا خير من اليد السفلى.

في الميزان الظاهر يبدو أن الربا يزيد المال.

في الميزان الحقيقي يذهب الربا بالمال.

في الميزان الظاهر يبدو أن الصدقة أنقصت المال.

في الميزان الحقيقي تزيد الصدقة المال.

والناس عادة ينظرون إلى الموازين الظاهرة

ويتصرفون على أساسها

ويقنعون بعائدها.

لكن الموازين الحقيقية ليست مجهولة.

إنها معلومة

وثابتة يقينا.

قد يسهون عنها.

ينسونها أو يتناسونها.

ومع ذلك تظل قائمة

ونافذة علينا.

شئنا أم أبينا.

تداخلت الأضداد في رأسي بلا مقر ولا مفر.

وعلا صوت حمار كأنه يشكو أو يستنجد فاجتاحني شعور جارف بالعطف عليه بينما طفق الشيخ يقول:

ـ اسمع يا ولدي:

إن الأرض تدور على ناموس السماء بدقة متناهية.

وفي ناموس السماء قواعد أمر الله الناس بتطبيقها

وقواعد أوكل تطبيقها إلى ذاته.

القواعد التي أحال تطبيقها إلى الناس يمكن أن تعطل فلا يطبقها بعضهم:

أمرهم بالإيمان لكن بعضهم يكفر

وأمرهم بإقامة الصلاة لكن بعضهم يتركها

وأمرهم بإيتاء الزكاة لكن بعضهم يبخل

وأمرهم بالصوم لكن بعضهم يفطر بغير عذر

وأمرهم بالعدل لكن بعضهم يظلم

وأمرهم بالصدق لكن بعضهم يكذب.

تلك من القواعد التي كلف الله الناس بتنفيذها

فيمكن تعطيلها لأن المكلفين من المخلوقات التي قد تكون مطيعة، وقد تكون عاصية.

أمّا القواعد التي يطبقها الله بذاته فلا تعطل أبدا:

كل نفس ذائقة الموت

يمحق الله الربا

ويربي الصدقات

ومن أعرض عن ذكر الله فإن له معيشة ضنكا.

تلك من القواعد التي يطبقها الله بذاته

فلا تقوى قوة في الوجود على تعطيلها.

أتحدى من يأتيني باستثناء واحد يخالف قاعدة من القواعد التي ينفذها الملك بذاته العليا.

قلت بفضول الصبا:

ـ وأينا أفضل يا سيدنا؟

قال بحسم:

ـ إن الناس يتفاضلون بأفضال متعددة

مثل الحسب والنسب والجاه.

لكن أكرمنا عند الله أتقانا.

فإذا أردت أن تكون أفضل الناس فكن أتقاهم.

ولا تبال بفضل آخر.

فكل فضل بعدها

يكون حتما دونها

ولا يكون ندّها.

ومن ينال الباقية

لا تحتويه الفانية.

***

كان الليل قد أرخى سدله على مسرح ذلك اليوم

الذي صار ميلادي الثاني.

وحين يخطر المساء

تذوب في رحيقه الأشياء

وترتدي ثيابه

ظلالها والطل والأصداء.

وتختفي شوائب النهار

ومفردات الغل والشجار.

وباسمه

يسطر القمر

رسالة

تطوف بالمدار.

كان المنظور الفسيح يتيح انطلاق الأحاسيس من إسرائها إلى معراجها نحو فضاء لا نهائي.

وكان أريج الزهور يحتفل معي بالمقابلة الفارقة

النقطة الصفرية التي ولت عندها مرحلة الهزيمة

لتبدأ مرحلة النصر.

غدا أغتدي

إلى معهدي

وأصنع مستقبلي

بيدي.

***

كان نقيق الضفادع هو الموسيقى التصويرية لرواية قمت ببطولتها صدفة دون أن أقصد:

"أبي نجار السواقي"

واختزلت المعادلة في الكلمات العشر:

الإيمان والتقوى

والعلم والعمل

والثقة والعزة

والرضا والعفة

والبر والعطاء.

لن أخجل من حرفة أبي

وإنما سأشرف بها.

لقد أسلمني الشيخ عبد الحميد الزمام.

وعليّ أن أقود راحلتي

على الطريق.

لن ألتفت

فمن يلتفت

لا يتقدم.

شكرا لك يا سيّدي

شكرا لك.

الفصل الثالث

شرحت حكمة الشيخ عبد الحميد صدري، وأذهبت عني ما نغص عليّ من هواجس. فعدت إلى المدرسة واثقا بنفسي، معتدا بكرامتي. وقبل نهاية الحصة الثالثة وزع الأستاذ علي أوراق الإجابة على التلاميذ ثم خرج من الفصل. فلمّا وجدوا أنني قد حصلت على الدرجة النهائية عادوا إلى الغمز واللمز.

وتلك المرّة كانوا أشد حدة. فقد كان سكوتي يغريهم بالتمادي إلى حدود لم يبلغوها في المرّة الأولى. وتدفق فائض القوة المخزون لديهم بغزارة على ما توهموه ضعفا مني.

قال حسن:

ـ اسقونا العلم بالساقية.

وانفجروا ضاحكين. كانت في ضحكاتهم مبالغة مفتعلة كأنهم يجلدون ظهرا عاريا بالسياط.

ولم يفوّت خيري الفرصة فالتقطت بديهته السريعة خيط السخرية وقال بنبرة استهزاء:

ـ وإن انكسرت هاتوا لها نجار المعلومات.

وانطلقت موجة ثانية من الضحكات المصطنعة.

وقال سمير:

ـ مكتوب عليك يا عبد الباقي يسبقك ابن نجار السواقي.

وعلت الموجة الثالثة من الضحك دون أن تؤثر عليّ.

وحلقت حمامة بيضاء حتى وقفت على نافذة الفصل. كانت رقتها تنعكس بحضورها على ما حولها. واستشعرت طبيعتها الوديعة التي جعلت منها رمزا للسلام في العالم.

وتذكرت القول المأثور:

"اتق غضب الحمامة".

فهي مسالمة. ونادرا جدا ما تغضب. لكنها إذا غضبت فإنها لا تترك غريمها الذي استفزها حتى الموت!

ومع ذلك لم ينفذ الغضب إلى قلبي بعد أن حصّنه الشيخ عبد الحميد بحصانة منيعة.

وأفقت من شرودي على صلاح وهو يقول:

ـ "الأنصاف قامت، والقوالب نامت".

ولا أنكر الألم الذي أحدثته تلك الرباعية بالذات في داخلي لكنني لم أسمح للضيق بالظهور على وجهي. فكبتّ إحساسي، وتحاملت على مشاعري متظاهرا أمامهم بلا مبالاة مطلقة. وظلت صورة الشيخ عبد الحميد ماثلة في ذهني، وعظاته البليغة تواسيني وتؤازرني.

ولاذ محمود بالصمت وسط الصخب حتى التقت عيوننا فصفعني بنظرة لا أستطيع وصفها، ولا نسيانها.

وسرت العدوى في المجتمعين. وتوالت التعليقات المشابهة من إبراهيم وحسّان وعبد المجيد ورخا وأسامة ورمضان وآخرين. وتحول الفصل في ثوان إلى مرتع للهازلين.

ونزلت عليّ سكينة

فلم أرد على أحد

واعتصمت برب المستضعفين.

ماذا تساوي كل الإساءات على صفحة صباح التسامح؟

ألست الرابح

إذا جعلها الله لحسابي في الموازين؟

ربما أحرجهم صفحي

وربما كانوا سيستمرون في ثقل مزاحهم

لكنهم على أي حال كفوا عندما دخل المدرس الفصل.

***

ما أجمل أن يتأدب الإنسان بأدب القرآن.

ولا تستوي الحسنة ولا السيئة.

فما عليّ إذا دفعت بالتي هي أحسن

وتعاملت مع من يؤذيني كأنه ولي حميم

وصبرت حتى يكون لي الحظ العظيم؟

عليّ أن ألقنهم الدرس الذي تعلمته من الشيخ عبد الحميد. فلا أبخل بعون إذا استعصت عليهم مسألة. ولا أحاول أن أردعهم.

لن يجدوا عندي حين يتطاول بعضهم على أبي سوى التغاضي.

لن أفرط في المفاتح الثلاثة التي تفتح أبواب النجاة.

فلن تتم عليّ النعمة

إلاّ إذا أخذت العفو

وأمرت بالعرف

وأعرضت عن الجاهلين.

***

وعندما طلب الأستاذ علي أن نكتب في كراسة التعبير عن شخص أثر فينا أثرا خاصا استبق الزملاء في الكتابة عن خلفاء وأباطرة وقياصرة وملوك وأمراء وعلماء وأدباء.

وتخير كل واحد زاوية:

منهم من تأثر من ناحية الدين.

فوجد في إمام مثله الأعلى بما قدّمه من أسوة في الزهد والتضحية.

ومنهم من تأثر من ناحية السلطان.

فأبدى تقديره لوال أرسى مبادئ الممارسة السياسية في محافظته على حقوق المحكومين وحرياتهم، وصيانته لسيادة الدولة ووحدتها.

ومنهم من تأثر من ناحية القوة.

فكتب عن قائد منتصر سجّل الفتوحات المبينة في سجله.

ومنهم من اتجه اتجاه المبتكرين.

فعرض حيثيات تأثره بنابغة من المخترعين.

ومنهم من اختار خيار الثقافة.

فدوّن أسباب إعجابه بمؤلف من المبدعين.

أمّا أنا فلم أتردد في أن أكتب:

إن الذي أثر في حياتي ليس مفكرا أو زعيما

بل هو من آحاد الناس.

لم تضم دائرة معارف اسمه.

لم تنشر صحيفة صورته

أو كلمة عنه.

لم يتمكن من مطالعة كتاب.

لم يتحدث في برنامج.

ليس نجما.

وليس من الأعلام الذين ربما لا نستطيع أن نكون أمثالهم لكننا قد نستطيع أن نقتدي بهم.

ومع ذلك فنحن لا نتعلم فقط من المرموقين مع احترامنا لهم، وإنما يمكن أن نتعلم أيضا من العاديين لأن الشهرة ليست بالضرورة المعيار

الوحيد للتميز. فكم من مشهورين قامت شهرتهم على أسس سلبية. وكانت شهرة سوداء كشهرة الطغاة والسفاحين. وكم من مغمورين في غيابة الجحود كانوا بمناقبهم الدرر المكنونة التي يعثر عليها من يعرفها.

إن الماسة التي تكونت عبر الزمن في الباطن العميق تظل مطمورة في جوف المنجم.

وعندما يستخرجها العامل ثم يصقلها الجواهرجي تتحول إلى تحفة يتهافتون عليها.

الماسة هي الماسة

لم يتبدل جوهرها

لكن حالها في طبقة جيولوجية

غير حالها في معرض للحلي.

كم من ماسة عاشت تحت وطأة الإهمال فلم تجد من ينتشلها ليضيفها إلى رصيد الحضارة.

كم من موهبة بقيت مدفونة في مدافن الخذلان حتى غادرتها بحسرتها إلى مدافن النكران.

كم من قاتل قتل ملكة دون أن يتحمل المسؤولية الجنائية عن جريمة لا تعفيه من وزر ارتكابها، ولو تخلص من ظاهر عقابها.

ولا أدّعي أنني مكتشف أو مصلح لكن اختياري سيكون لكادح

علمني الخير والعطاء والإتقان.

رجل من الملايين الذين تطحنهم طاحونة الحياة

لكنهم يبنون بجهادهم بنيان الحياة.

ولو أملى واحد منهم مذكراته لاستنكر كثير من المستكبرين إقدامه على ما يحسبونه حكر فئة معينة في المجتمع، ووقفها المقصور. لكن العبر المستفادة من سير البسطاء قد تكون أجدى بمراحل من مغزى الأضواء اللامعة، وإن تألقت باهرة ساطعة.

مكافح يستيقظ مع أذان الفجر ليبدأ نهاره بالصلاة والتسبيح والدعاء. ويخرج إلى عمله مع إشراق الصباح راضيا متفائلا. فيعكف على أدائه في شغف وإخلاص حتى الغروب. ويعود إلى بيته حامدا شاكرا قانعا. ويختم مع أذان العشاء كما بدأ بالصلاة والتسبيح والدعاء.

لا يحمل في صدره حسدا. يفوض أمره إلى خالقه فيما يتجاوز حدود قدرته. ويبذل أقصى جهده فيما يقدر عليه.

لم يتخرج في مدرسة. لكنه تعلم من الساقية حكمة. هي ألاّ يمعن في الأمل، وألاّ يركن إلى اليأس مادام يسير في طريقه مستقيما.

إنه ليس فيلسوفا

ولكن.. إذا كانت الفلسفة هي أم المعارف فإن من تهديه فطرته إلى الحقيقة يكون أكثر من فيلسوف.

إذا كنت منصفا

فلست متحيزا.

إنما عليّ أن أنسب الفضل لأهله

والثمرة لجذرها

وأن أشهد لمن كان له الأثر الأول في تكويني:

أبي.. نجار السواقي.

***

ومدح الأستاذ علي أسلوبي، ومنحني درجة عالية، وزاد عليها أن كافأني مكافأة رمزية بأن أهداني شهادة خطها بخطه حافزا لي. وكان من الخطاطين المعدودين. لكن المفاجأة التي اختصني بها بعد ذلك هي دعوته لي إلى إلقاء موضوعي على زملائي.

ولو كنت في الحالة التي أوصلني إليها بعضهم لدى عودتنا من الامتحان لكانت الدعوة كفيلة بأن تبعث في فؤادي اضطرابا وإحجاما لا حد له، ولكنت لا شك قد وقفت أمامهم متلعثما متعثر اللسان لا أقوى على نطق أو بيان، ولاستدعيت المزيد من تهكمهم عليّ.

لكنني تذكرت على الفور نصيحة الشيخ عبد الحميد فتمالكت أعصابي، واستجمعت شجاعتي، ووقفت رابط الجأش، وتلوت بصوت مسموع واضح ثابت لا يسرع ولا يلحن، وحرصت على أن أنقل نظري بانتظام بين السطور وبين الجمهور كما يقتضي فن الإلقاء السليم. فرأيت على وجوههم غبطة يشوبها الخجل في عيون أولئك الذين تصوّروا أن بإمكانهم أن يتخذوا من حرفة أبي معولا لهدم نجاحي وتحطيمي.

وكان الأستاذ علي واقفا على مقربة مني يحيطني بالإعزاز والاعتزاز حتى فرغت من القراءة فدوّى الفصل بالتصفيق الحار في حماسة صادقة، وتلقاني الرفاق مهنئين.

***

وازددت حبا لأبي ومعلمي.

إننا لا نرى الأشياء كما هي، وإنما كما ندركها.

وبعقولنا نرفع الكائن إلى مستوى ما ينبغي أن يكون.

ذلك هو ما خطر ببالي عندما تلقينا بعدها التكليف التالي من معلمنا في حصة التعبير:

"جذبتك مهنة معينة. اكتب عنها محللا بالتفصيل الأسباب المقنعة التي حملتك على اختيارها".

وكتب زملائي عن مهن متعددة كالطب والصيدلة والهندسة والتدريس والقضاء والنيابة والمحاماة والدبلوماسية والصحافة والإذاعة والتمثيل والغناء والإخراج والرسم.

أمّا أنا فكتبت:

تعتمد المهنة على الحاجة إليها. وتسيطر آلية العرض والطلب على تلك العلاقة. فمهنة الفرد تقدم للجماعة سلعة أو خدمة تتوقف قيمتها على نقطة تقاطعية بين المنحنيين.

لا توجد مهنة رفيعة وأخرى وضيعة. فكل المهن متكافئة على قدم المساواة في مكانتها لكن الأهمية تتدرج تبعا لمدى إقبال المستهلك أو المستخدم على موضع المهنة.

فعندما يتراجع الطلب على السقا مثلا تختفي المهنة بالاستغناء عنها لأن المواسير حلت محله في توصيل المياه. وكذلك الحال في مهن تجاوزها الزمن بما يفرضه من مقتضيات.

بينما تستمد مهنة المسحراتي سحرها الخاص من المعنى الذي يرتبط بها حين يطوف في السحر يؤنس الساهرين، ويوقظ النائمين طوال رمضان الذي يجعل منها طقسا ملازما له. فقد تتلاشى الحاجة إليها، وتظل مع ذلك قسمة من قسمات شهر الصوم.

وبصفة عامة لا تنقرض المهنة إلاّ بفعل التطور. فعندما ينعكس تغير سياسي على مظهر اجتماعي كارتداء الطربوش تتقلص مهنة صانعه الذي قد لا يجد من يشتري.

ليس ثمة مهن قمة ومهن سفح. ذلك تصنيف يفتقر إلى الصحة. فالمهن تصطف اصطفافا واحدا في المجتمع. لكن التباين بينها يرد على مقاييس متعلقة بالاستفادة من المهنة.

ووراثة المهنة المتهمة أحيانا بأنها نتيجة لاستغلال النفوذ لا تكون دائما من تطبيقات الفساد. فكثيرا ما تكون ظاهرة إيجابية مبنية على الاقتداء والتقليد والتعلم. وهكذا توارثت أسر معينة لأجيال متوالية مهنة ما بخبرة المحاكاة المستمدة من الاحتكاك المباشر.

الوراثة قاعدة من قواعد القانون الطبيعي.

كما يرث الخلف الأرض والعقار والمال

والملامح العضوية

يرث الخصائص الأخلاقية

فثمة عائلات شيمتها الجود

وعائلات شيمتها البسالة

ويرث القدرات العملية

فثمة عائلات تحترف الصيد

وعائلات تحترف التجارة.

"ابن الإوز عوّام"

وابن الحوت غوّاص

وابن الفهد عدّاء

وابن العصفور طيّار.

وقد يفسر ذلك تعلقي بمهنة نشأت عليها.

مهنة تأخذني إلى عذوبة الماء، وطيب الخضرة، ورفق النسيم.

مهنة لم أرثها

ولكنني ألفتها

وآثرتها من بين المهن

لأنها مهنة أبي

نجار السواقي.

***

وفي تلك المرّة لم يكلفني الأستاذ بإلقاء موضوعي على زملائي كما حدث في المرّة السابقة. فقط رفع عينيه ببطء عن الورقة. ونظر إليّ متمهلا كالمتأمل. ثم قال بتؤدة:

ـ ستكون كاتبا. وستدخل التاريخ من أرحب أبوابه

لتقف جنبا إلى جنب مع الخالدين.

وأذهلتني العبارة

وبددت بقايا القلق الذي كاد يعصف بي.

لم تكن رجما بالغيب

ولا نبوءة منجم

لكنها أسعدتني كما لو كنت قد حصلت على جائزة الدولة!

***

وبدأ ينمو في وجداني إحساس بالتعاطف مع صعوبة استيعاب بعض زملائي للدروس المقررة. إننا عادة نستغرق في حل مشاكلنا وتحقيق مصالحنا غير معنيين بالآخرين. وقلما نكرس من أوقاتنا وجهودنا وقدراتنا في سبيل اهتمامنا بسوانا من الذين يعفون عن التماس المساندة حياء وترفعا، وتأبى كرامتهم أن يقفوا موقف استجداء.

فكيف يصمدون وحدهم في مواجهة صروف الدهر؟

هل يعيش المرء لذاته

وتموت المروءة؟

الموت أهون من موت المروءة.

وما جدوى الحياة بشريعة الغاب التي لا يكترث القوي فيها بالضعيف تحت شعار "أنا أولا وأخيرا"؟

لسنا فصيلة من فصائل الوحوش.

ولن يكون كل تركيزي على أن أظل الأول، وليذهب الأواخر غير مأسوف عليهم إلى حيث يذهبون.

***

وخطرت ببالي فكرة عرضتها على المعلم دون حرج. فقد كان يسمح لنا بمساحة واسعة من المشاركة تجعل العملية التعليمية تفاعلية بينه وبيننا، وليست قناة تلقينية أحادية الاتجاه تنبع من فمه لتصب في آذاننا كتيار النهر. كان يحثنا على مخالفته في آرائه، ومناقشته فيها بأدب مع المحافظة على المسافة الواجبة بين المعلم وبين التلاميذ.

قلت للأستاذ علي:

ـ هل يكون التكافل في المال فقط؟

كان السؤال المباغت الذي طرحته متشعب الآفاق فأجاب وعلى شفتيه بسمة مشجعة قائلا:

ـ لا طبعا. بل في كل شيء. من يحظى بفضل فليوجهه لمن يفتقر إليه. وفي أدبيات التقاليد الإسلامية نصوص ناصعة عن تلك الفضيلة ليتك تبحث عنها أو أزودك بها إن شئت.

قلت:

ـ ولمّا تخلينا عنها تخلفنا. وسبقتنا الشعوب التي تقدمت برعاية أبنائها على تفاوتهم. فالذي يتفرد يخصونه بعناية تناسبه، والذي يتخلف يعينونه على تدارك عوامل قصوره.

اتفق الأستاذ معي بقوله:

ـ على نقيض أمم كانت سائدة لكنها فقدت ما كان لها من سؤدد لأنها أحبطت من يبرز، وقهرت من يعاني.

قلت بنشوة بثها التجاوب:

ـ ليتنا نخصص حصة لسير النابهين الذين صمدوا للكبوة، ولم ينهاروا مهزومين، وقاوموها حتى تغلبوا عليها. فأصبحوا المصابيح العالية التي لا يقدر على إطفائها الشانئون.

أمّن الأستاذ علي على كلامي بقوله:

ـ سقطوا في اختبارات مدرسية ثم تربعوا على القمم العلمية. نحن الذين نجعل من المدرسة مهد العبقرية أو لحدها.

***

قطعت استرسالنا جلبة تمخضت عن مشادة نشبت بين إبراهيم وبين عبد المجيد أثناء لعبهما بالكرة في الفسحة. وسرعان ما احتدت المشادة حتى تحولت في لمح البصر إلى مشاجرة. ومشاجرات الصبية تشتعل لأتفه سبب، وتبدو إذا احتدمت مستعصية على الحل.

إن الذي يوقد في مواقفنا النار هو إصرار كل طرف على الانتصار، ولو كان بإهدار العدل وسلب الحق. يتجلى ذلك في مشاحنات الصغار والكبار لأن ثقافة الأنانية واحدة لدى الفريقين سواء ظهرت بصورة فجة عند الفريق الأول أو ناضجة عند الفريق الثاني.

ولأمر ما قال السلف في المثل السائر:

"قاضي الصغار اشتكى روحه"!

وقد يشكو قاضي الكبار أيضا روحه منهم حين يلوون ذراع الحقيقة ليديروها نحو أهوائهم.

وما أضل الهوى

حين يهوي

إلى هاوية.

***

تدخل الأستاذ علي لفض الاشتباك، وعاتب الولدين بقوله:

ـ لماذا نحوّل سوء التفاهم إلى عراك؟

ألا نجيد إلاّ لغة العنف؟

أليس من الممكن أن نحيل اختلافنا إلى تعامل يفضي إلى تكامل بدلا من أن نقلبه إلى تنافر يؤدي إلى تناحر؟

ثم دعاهما في مقاربة تربوية رائدة إلى مشاركتنا.

قال الأستاذ علي:

ـ كنا نستلهم ذوي الإرادات الحديدية الذين تساموا على المحن، واتخذوا منها مساراتهم إلى المجد.

قال عبد المجيد:

ـ فقدوا حاسة.

قلت:

ـ أو تعرضوا لبتر.

قال إبراهيم:

ـ أو أصابهم داء.

قلت:

ـ أو شبّوا تحت خط الفقر.

قال الأستاذ علي:

ـ أو اضطروا مرغمين إلى الخروج من المدرسة.

أو ذاقوا مرارة الفقد.

علينا إذن ألاّ نتحرج من النقص.. أي نقص مادي أو معنوي.

فما من نقص إلاّ وله ما يتمه سواء كان بسده أو تغطيته أو تعويضه.

والعبرة بالعزيمة المستمدة من إيمان يقبل التحدي فلا يتخلى عن الهدف أيا كانت العراقيل.

قلت معقبا:

ـ اتفقنا على المبدأ.

قال الأستاذ علي:

ـ على كل منا أن يعرض مسيرة شخصية من الفشل إلى النجاح. وبذلك تكون لدينا حصيلة وافرة من المثل العليا.

فنمحو "العجز" من قواميسنا.

تفكرت في اللفظ الذي استعمله الأستاذ:

نمحو "العجز" من قواميسنا.

ما أمضاه سلاحا

أستمسك به

وأكر على ما يعترضني

ولا أفر أبدا.

***

كانت حصة بلا نظير.

تبارينا فيها أنبل مباراة.

وقام المعلم بدوره كأحدنا

لا كأستاذ لنا.

استعرض سبعة من التلاميذ سبع تجارب تستنهض الهمم بإشعاعها المؤثر في كيفية تحويل العثرة إلى نصرة.

وكانت دلالاتها موحية، وموجعة، ودافعة.

فمن منا لا يستوحي ملحمة معاق تفوق باقتدار على الأسوياء؟

ومن منا لا يوجعه العذاب الذي تتضمنه تلك الملحمة؟

ومن منا لا تدفعه إلى التفاني في العمل مهما كانت العقبات؟

***

توالينا على ذلك المنوال بضع حصص تناولنا فيها العشرات من الحالات التي بدت كالأساطير. وتسللت من بينها على استحياء علامة استفهام ما كان لي أن أبوح بها:

لماذا لا يكون ابن نجار السواقي واحدا من هؤلاء؟

أجل

لماذا؟

الفصل الرابع

هو قدر الإنسان

أن يكون وجوده ورقة امتحان

في سنوات محددة من الزمان.

***

تتعدد بدائل الإمكان.

فإذا اختار الأمثل

كانت نتيجته صائبة

وإذا اختار الأسوأ

ساءت عليه العاقبة.

***

وحين ينتهي الوقت

يسلم الإجابة

مكتوبة بقوله وفعله.

قد لا تكون كلها بيضاء

ولا تكون كلها سوداء

لكنها حصيلة التفاضل

في ساحة مفتوحة المسالك.

***

يقيم الصلاة أو يترك.

يحافظ على صحته أو يبدد.

يستثمر وقته أو يهدر.

يحمل الأمانة أو يفرط.

يتحرى الكمال أو يقبل النقص.

يسمو على الصغائر أو ينزل.

يعفو أو يعاقب.

يستعمل طاقته أو يعطل.

يعز نفسه بوضعها في موضعها أو يذلها بإلقائها في المهانة.

يعف عن الإسفاف أو يتدنى.

يصون حرمة بيته بحماية أو يضيعها بإباحة.

يؤثر أو يستأثر.

يحسن أو يسيء.

يعطي أو يبخل.

يعيش فيما يناسب أو فيما لا يناسب.

يحرص على الطيب حين يأخذ أو لا يكترث.

يعلي المبدأ على المال أو يعلي المال على المبدأ.

يلزم مهنته أو يتطفل.

يعنى بمظهره أو يهمل.

يوفي الحقوق أو يبخس.

يكفي حاجته أو يستجدي.

يجود أو يسأل.

يخلص أو يرائي.

يحتمل الصراحة أو ينافق.

يخف على الآخرين أو يثقل.

يستقيم أو ينحرف.

يصمت أو يثرثر.

يحفظ الغياب أو يغتاب.

ينشغل بشأنه أو يكون فضوليا.

***

رسل الله بعد الأنبياء

الأولياء

وأكرمنا لديه الأتقياء.

فمن شاء أن يكون الأكرم

فليكن الأتقى.

***

كانت وقفة

وقفتها مع ذاتي

فأصبحت نقطة تحول في حياتي.

وعاهدت نفسي أن أكون معطاء.

لا أنتظر العرفان

ولا أبدّل الإحسان

ولا أنقض العهد

ولا أكفّ عن الخير.

***

ومن يومها انفتحت على العالم بعد أن كنت منغلقا على عالمي الافتراضي الذي شيدته داخلي بلبنات كتب سلبتني من المعايشة إلى أطروحات فلسفية قد لا أنكر قيمتها

ولكن التنظير وحده لا يجدي.

شاركت في النشاط المدرسي بعد أن كنت منطويا

عازفا منعزلا متوحدا.

وللمرّة الأولى ذهبت مع زملائي بإشراف رائد الفصل في رحلة إلى الفيوم. ومشيت على حافة البحيرة الغامضة التي نسجوا حولها ما يشبه

الأساطير من حكايات لا أنساها. واستغرقت في تأملاتي بسباحة ذهنية على بهاء الطبيعة الخلابة الآسرة.

وباتت السواقي تنعي

ترثي من راحوا

وتأسى على ما لن يعود.

يشطر الخرير قلبي

ويشجيني النعيب

وأحب أبي

نجار السواقي

وأسمو وأصفح

مهما ألاقي.

***

من وحي رحلتنا إلى الفيوم قمنا بتنظيم معرض فني لتطور وسائل الري في بلادنا. فوضعت على بهو المعرض مجلة حائط تزدان بصور للأدوات التي استخدمها الفلاحون في وادي النيل لري الأرض. وأوردت نبذة مختصرة من التعريفات:

الغرين هو الطمي الذي يفيض من النيل على الأرض فيتغلغل فيها بالخصوبة ليزيد إنتاجها.

ري الحياض هو تجزئة الأرض إلى أجزاء متجاورة لتكون الزراعة مرّة في السنة.

الري الدائم هو تواتر إمداد الأرض بالمياه لتستمر الزراعة أكثر من مرّة على مدار العام.

الريّاح فرع من ثلاثة فروع ثانوية للنيل في دلتاه بعد الفرعين الرئيسين: دمياط ورشيد.

"البحر" في المصطلحات الدارجة هو نهر النيل وتفريعاته إلى حد تسمية جزء منه "البحر الأعظم"! أمّا في الجغرافيا فالدلالة تنصرف إلى الخضم العظيم الملح الأجاج.

السد حاجز على النهر يحبس المياه في بحيرة صناعية من أجل تحويلها إلى رصيد لوقت الحاجة.

الخزان حافظ للمياه عند وفرتها من أجل استغلالها فيما بعد حين يهبط معدل سريانها.

القنطرة معبر فوق مجرى أو بوابة لتنظيم الاستفادة من مياهه بالسيطرة على توزيعها.

الفيضان زيادة موسمية في منسوب المياه تكون نافعة أو ضارة حسب كيفية التعامل معها.

الشادوف رافعة للماء على حامل رأسي يرتبط بأحد طرفيها إناء وبالطرف الآخر ثقل.

الطنبور اسطوانة تدور حول محور لتسحب الماء بأحد طرفيها وتصبه بالطرف الآخر.

الساقية أوعية تتدلى على محيط دائرة رأسية مثبتة بدائرة موازية تديرها دائرة أفقية.

***

ونفيت أن عروس النيل كانت فتاة يلقون بها إليه لتغرق فيه قربانا له حتى يرضى فيفيض!

ربما كانوا يقدسونه. ولكن.. هل يفعلها من تنطق بلسان حضارتهم الخالدة الأهرامات؟

سيدة العجائب السبع

وأبقاها قاطبة.

لم تكن العروس في الحقيقة إلاّ دمية يأتون بها في طقس تقليدي طريف. وما كان لهم أن يقدموا على ارتكاب جريمة لا يبررها العقل، وهم الذين تدل آثارهم على مدى رفعتهم.

***

وافتتحنا المعرض باحتفال حضره مع ناظر المدرسة وأساتذتها زائر كبير من مديري التعليم. وعندما سألني الضيف عن سر اهتمامي، وعن مصادر معلوماتي قلت بثقة:

ـ أبي.. نجار السواقي.

وتلقيت عن دوري في تنظيم المعرض شهادة تقدير من مجلس الآباء والمعلمين. وتعلمت من ذلك الموقف أن نظرتنا إلى الأمور هي العنصر الفعّال في تأثرنا بها. فكنت كلما اقتضت أوراقي أن أذكر مهنة ولي الأمر أكتب:

نجار السواقي

***

والتحقت بفريق التمثيل، وكسبت من الهواية قدرة مواجهة الجمهور على خشبة المسرح. وعرفت أن الفن يرتفع بقدر ما يعبّر دون افتعال تعبيرا صادقا عن مشاعر الناس.

وأردت أن أفض الاشتباك في أذهانهم بين التشخيص وبين الرذيلة حتى بات بعضهم يراه قرينا لها، وأضحت الدعوة للسينما كما لو كانت دعوة لمفسدة!

وهي مغالطة.

فالفن كالفم:

يأكل الحلال ويتكلم الكلمة الطيبة

أو يأكل الحرام ويتكلم الكلمة الخبيثة.

فلا ينبغي أن يقوّم على إطلاق المأخذ

وإنما على نسبية الغرض.

وراقت لي الفكرة. وتوسمت في شخصي على صغر سني مسؤولية عن إزالة الالتباس الذي يشوه الصورة، ويكدّر صفاءها. وفي حفل نهاية العام الدراسي أدّيت دور نجار السواقي الذي يقنع بالكفاف لكنه يكره الظلم، ويتحالف مع إخوانه ضد الاستعمار.

كانت الدراما مبنية على كفاحية حركة التحرر التي سمّوها خطأ "ثورة" لأن الثورة تكون على الحاكمين لا على الغازين.

وكانت المسرحية من تأليف ناظر المدرسة الذي قدّمها بحيائه ووقاره المعهودين إلى الآنسة آمال الصوفي مدرسة الموسيقى فلحنتها وأخرجتها ببراعة أذهلت من شاهدوها.

وأنشدت فيها على أنغام الناي:

ساقية

لكن علمتني حكمة الأيام.

تدور

يموت العطش

تتحقق الأحلام.

درس الكرامة بدأ

يا أهل وادينا

مكتوب على عمرنا

من غير حروف وكلام.

***

ساقية

وأنا نجار

أعزف على أوتار

تقول: كنوز العرب

لا جنيه ولا دينار.

كنز الرجال العرق

والدم يا ابن العم

وسرنا عزمنا

يا ساقية الأسرار.

***

ساقية

تحب التاريخ

وتردد الأشعار.

يفرح بها الأرغول

ترقص لها الأشجار.

تحكي عن الأجداد

ويسمع الأحفاد

إن الجهاد شرعنا

وإن المذلة عار.

كان كل لفظ باللغة العربية الفصحى

وباللهجة المصرية العامية في آن واحد!

كم هي سلسة

تلك اللغة

التي تسلم قيادها

لمن يملك ناصيتها

ولا يدرك سحرها

إلاّ من يتبتل في محرابها

ويحلق في آفاق رحابتها

وسخائها.

ويغوص إلى لآلئها

ومكنونها.

لسان القرآن

المحفوظ بأمر الرحمن

والتي تدين لها لغات بكثير من مفرداتها.

***

وكانت بطلة المسرحية هي نهلة

ابنة الحاج عبد التوّاب الكاشف

زميلة الصف

وجارة البيت

الفتاة الهادئة المهذبة

التي تزوجتها فيما بعد.

***

وأسندت إليّ الأستاذة آمال في ملهاة قصيرة من فصل واحد دور ثري شديد السذاجة من الأعيان يهبط عليه منصب العمدة فجأة من

المديرية فيتخبط في تلقي التكليف إلى حد أنه يسألها بطريقة هزلية عن سبب اختفائها وراء الجدران وهي تحدثه بالتليفون! ثم يركب حماره مسرعا إلى محطة القطار ليستقله فيلحق بعربة السبنسة.

وبالغت في التقليد بأداء كوميدي للغاية. وكان العمدة في صدارة المدعوين جالسا وسط الصف الأول فضحك حتى كاد صوته يعلو على أصواتنا ثم أرسل يدعوني إلى مصافحته، وتمنى لي التوفيق.

***

ودرّبتني الأستاذة آمال على موشحات ذائعة الصيت في منتديات التراث لدى المتذوقين لروائعه. وترنمت بتجليات أطربت المستمعين حتى ألهبوا أكفهم بين صيحات متجاوبة:

ـ الله.. الله.

وظل الغناء لاسيما في مجاليه الشامية هو المهنة الأولى التي حاولتها لكنني لم أمتهنها.

إن من يملك العالم لابد أن يحدد الهدف

وأن يصعد على سلم صارم للأولويات.

***

وعندما أعلنت المدرسة عن مسابقة "الطالب المثالي" تقدّمت إليها ضمن المتنافسين على اللقب المرموق.

وشكّل الناظر لجنة محكّمين ثلاثية برياسته وعضوية اثنين من المدرسين المعنيين بالأنشطة الثقافية كان الأستاذ علي أحدهما أمّا الآخر فكان الأستاذ حسونة القليوبي.

وانعقدت اللجنة لتنجز مهمتها فطلب لنا الشاي واليانسون.

ولم يكن ذلك أمرا مألوفا

فسعدنا بتلك الحفاوة الاستثنائية، وكأنه قلدنا النياشين!

ودارت الأسئلة مدارات متعددة لم تخل من لفتات ظريفة حتى تطرّقت إلى نهر النيل في منابعه ودول حوضه. واستصعبها أحدنا فقال له الناظر بمزيج من الجد والدعابة:

ـ أنا أسألك:

من أين تشرب؟

ألا يجب عليك أن تعرف؟

وجاء دوري فانطلقت متدفقا كشلال أستعرض البحيرات والروافد في إريتريا وأوغندا وأثيوبيا والسودان والكونغو وبوروندي وتنزانيا ورواندا

وكينيا. وابتسم الناظر ابتسامة ذات مغزى تبادلها مع العضوين وهم يتداولون مداولة خاطفة ثم سأل قائلا:

ـ ما معنى "الإمبريالية"؟

فقلت على الفور:

ـ أن تسيطر دون أن تحتل.

قال:

ـ وما معنى "الإستراتيجية"؟

فقلت على البديهة:

ـ خطة لتحويل الإمكانيات إلى قدرات من أجل تحقيق الأهداف.

واتسعت ابتسامة الناظر معجبا

و متعجبا.

وأعلن فوزي.

وهنا يعجز البيان عن الوصف.

فقد أحسست أن الغد يلوّح لي

ويعدني.

ورجعت أزف النبأ إلى أسرتي

وكانت فرحة

وبعد الشراب والحلوى

أسبغ أبي الوضوء

وأطال السجود.

***

كان حفل المدرسة قبل إجازة الصيف هو المهرجان الذي نحييه بشغف. وكان أبي بين أولياء الأمور المدعوين للحضور فلبّى ممتنا. واستقبله الناظر مرحبا، وصحبه إلى حيث جلس. ثم طلب منه ضمن فقرة الخطابة أن يلقي كلمة الآباء بصفته والد الطالب المثالي.

ووقف أبي يتحدث في تلقائية وطلاقة عن إكباره للعلم والعلماء. وشكر لإدارة المدرسة وأساتذتها الأجلاء جهودهم الموفقة في تنشئة جيل يتحلى بالفضيلة، ويعرف أن الناس جميعا لآدم، وآدم من تراب. لا فضل لأحد على أحد إلاّ بالباقيات الصالحات.

وعاد إلى مكانه وسط تصفيق الحاضرين. ووقفت إلى جانبه نصافح معا زملائي وذويهم.

***

لم تكن مسيرتي سلسلة متواصلة من النجاحات الخارقة. فلست فتى المستحيل الذي طعن التنين طعنة قاضية، واجتاز الفرات بوثبة عاتية، وشطر الجبل نصفين في ثانية!

لقد كانت العقبات على موعد معي لم أتوقعه، ولم أحسب حسابه. وما كنت لأقتحمها بالتهور دون تدبر. لكنها لم تجد مني في كل مرّة إلاّ إرادة صلبة تقاومها وتتحداها.

كانت الملمّات هي الكبوات العارضة التي أنهض منها بالعزيمة، وأحرص على تعويض ما فات فيبدو كأن لم يكن.

إنها ليست قوة اليد

ولا قوة الفؤاد

إنما هي قوة الإيمان.

كانت تدفعني إلى مواجهة العثرة بالمرح!

آخذها كما لو كانت لعبة.

ويثير استخفافي من حولي من الذين يتوقعون أن أحزن.

لكن من ينحني لخالقه راكعا

لا ينحني لعاصفة

بل يتلقاها بجبهة لا تنخفض

إلاّ لبارئها.

كنت أخرج إلى الحقول فأمشي بمحاذاة الترعة أستعرض العوامل وأحللها وأفند كل ذريعة.

وبعد أن أقلب القرار على وجوهه أتخذه

وأنفذه.

***

إن ما يحدث لنا لا يعدو في خلاصته أن يكون نسخة خارجية من داخلنا. قد نطوي جوانحنا مداراة على ما نستره لكننا لا نلقى في حاضرنا إلاّ ما أضمرنا في سرائرنا.

فعلينا أن نلزم صراط الضمير في كل لفظة، وفي كل خطوة، وفي كل خافية بوازع لا يتأرجح على أرجوحة الإقدام والإحجام طمعا في الثواب أو خوفا من العذاب.

***

على هذا المنوال كنت أسترسل عندما تمدد أمامي نطاق التفكير حين أصابتني الحمى الروماتزمية. فقد أمرني الدكتور رفيق مرقص أخصائي

مستشفى المركز العمومي بعد الكشف والتشخيص بالراحة في الفراش. فامتنعت عن الذهاب إلى المدرسة.

وصرت أقضي نهاري وليلي في الساعات الأربع والعشرين مستلقيا على ظهري أو على جانبي أو جالسا لتناول الطعام الخالي تماما من ذرة ملح والمذاكرة والمطالعة.

وحسب تعليمات الطبيب الذي استعان بالأجهزة ومعمل التحليل لمتابعة الهيموجلوبين وسرعة الترسيب كنت أقيس درجة الحرارة في مواعيدها، وأقيدها للعرض عليه.

وكان الحاج شكري الحنفي يأتي كل شهر ليحقنني بمضاد حيوي طويل المفعول بعد أن يجري لي اختبار الحساسية.

وكان يأبى أن يأخذ أجرا، ويقول:

ـ أنا آخذ أجرا من ابني؟

***

وتعاطيت الأدوية حتى تورّم جسدي. وكان أهل الريف يرون في الورم نذير الرحيل فأوصوا أمي بي ودمعهم في العيون!

وزارني ناظر المدرسة والأستاذ علي فأحسست أن صدري لا يسع شعوري بالشرف لتلك الزيارة الكريمة. ولم أخجل من دارنا.

لقد نضجت بما فيه الكفاية

لأدرك أن البساطة

أجمل من التزيد

وأولى بعابر السبيل أن يكتفي بالضرورة من كل حاجة

لأن المسافر لا يثقل ظهره بما لا يلزم

وكلنا مسافرون.

***

وصهرتني المحنة في بوتقتها فكانت منحة سخية. وما كل محنة في ظاهرها إلاّ منحة.

راجعت دروسي. وقمت بحل امتحانات التدريب. وكان للقراءة أوفر نصيب.

وتمت عليّ نعمة الشفاء لكن بعض صمامات القلب تأثر فتعايشت معه بترشيد السلوك

في بذل المجهود

وفي قسط النوم

الذي يكفي لاستعادة العافية.

ولم أستسلم.

الفصل الخامس

تابعت رحلة التعلم، وحصلت على الشهادة الثانوية بدرجات أهّلتني لنيل المكافأة المقررة. وكنا نتقاضاها مقسمة على شهور العام الدراسي إلى ست دفعات من صرّاف كلية الهندسة التي ألحقني بها مجموعي.

كنا نصطف في السنة الإعدادية مبتهجين لاستلام النقود. تكللنا أكاليل العزة كما لو كان استعراض محاربين منتصرين يعلو الغار هاماتهم. فليس أجمل من فرحة النجاح إلاّ نشوة التفوق.

ولم يتسرب إليّ الغرور

لكن الاطمئنان كان يغمرني.

فالراتب للطالب نقلة نوعية تتجاوز آفاقه، وتمنحه إفاضة تلقائية بزهو لا حد له. وكأنه تحوّل إلى موظف حكومة قبل الأوان. فصار ثمرة نادرة سبقت موسمها بنضجها.

كانت القفزة من المدرسة إلى كلية الهندسة، ومن ريف القرية الصغيرة إلى حضر العاصمة الكبيرة، ومن الأهل المعروفين إلى الغرباء المجهولين طفرة هائلة اقتضت بالضرورة بعض الوقت لأتمكن من التعايش معها تحت تأثير التعود الذي يزحف بفعل الزمن، والتكيف الذي يتبعه على

مهل. لكن الأصعب بالنسبة لي كان انتقالي من البيت الذي لم أغادره منذ ميلادي إلى المدينة الجامعية المخصصة لإيواء المغتربين بتكلفة رمزية كنا نسددها.

كانت المدينة في مواجهة الحرم الجامعي من جهة بين السرايات، وكانت الكلية ناحية الباب الرئيس للجامعة على الطريق إلى ميدان الجيزة، وعلى مقربة من حديقة الحيوان التي لم أفوت فرصة دخولها.

ذهبت مع صديقي ميشيل رامز الطالب بكلية الصيدلة الذي صادفته في إحدى المكتبات فنشأت بيننا مودة لم تنسجها زمالة إذ كنا في كليتين مختلفتين، وإنما نسجها التآلف.

كان يملك حاسة سادسة مذهلة. وكان حدسه يصدق بتواتر باهر. وكنا نتدرب على التواصل الروحي الثنائي. وأدهشني ذلك العلم حين أجرينا عليه تطبيقاتنا المشتركة. فكنا نتقاسم فكرة ما طافت بكل منا على حدة لحظة لم نكن خلالها في مكان واحد!

قلت له ونحن نتجول في الحديقة:

ـ إنهم يوفرون للحيوانات بيئة مشابهة لبيئتها بقدر الإمكان لكنها مع ذلك قد تحن لحريتها. والموطن سلطان. فالطيور تعبر بغريزتها المسافات الشاسعة من أجل الوصول إليه مهما كان بعيدا.

قال وهو يضم قبضته:

ـ هل ترى في حبسها قسوة عليها؟

قلت باستغراب:

ـ ولم لا؟

قال وهو يعقد ذراعيه على صدره:

ـ هل تعلم أن العنصرية بلغت فيما مضى حد إقامة حديقة حيوان لعرض حالات بشرية؟

شهقت قائلا:

ـ يا إلهي!

قال:

ـ ألا تتفق معي على سمو حضارتنا التي لم تلوثها شوائب بشعة شابت مدنيات متغطرسة أهانت المستضعفين، وسحقت كرامتهم، ولم تسمح لهم أحيانا بالوجود؟

فأمّنت على كلامه بإيماءة

دون أن أنطق.

خفف التوتر الذي أحدثته الصدمة بقوله:

ـ تركب الفيل؟

قلت:

ـ لا.

قال:

ـ إنك تفضل أن تكون على هامش المجتمع لا تندمج فيه. وقد يتيح تمركزك عند الحافة إمكانية الرصد برؤية متكاملة.

قلت مقتنعا:

ـ نعم.

قال بهدوء:

ـ لكن ذلك لا يكون إلاّ للفلاسفة الذين يكتفون بإطلالة.

قلت:

ـ وهل يمكن أن أكون من هؤلاء؟

أجاب قائلا:

ـ ستأخذك الهندسة من الفلسفة

لكنها ستستردك

بمغناطيسيتها.

***

كان يطيب لي أن أقف وقفة المتأمل إزاء قبة الجامعة، وساعتها العالية على حاملها العريق. وكنت أجتاز الحرم الجامعي مرّتين على الأقل يوميا. وأنهل من معين معالم شكلت خريطة جغرافية في العقل الباطن لا تلغي التضاريس التي نشأت عليها.

لماذا نتقدم بمنطق الاستبدال

بدلا من أن نتقدم بمنطق الإضافة؟

كانت المدينة الجامعية تجربة مركبة. فقد تصورتها للوهلة الأولى نموذج محاكاة لثكنة عسكرية بحجراتها المتساوية وتقاليدها الصارمة. ولكنني تلمست فيها مسحة مقتبسة من ترف الضيافة الفندقية بما تحتويه من أناقة يمكن أن أصطنعها في الغرفة بلمساتي.

إن الناظر هو الذي يحدد النظرة

وليس المنظور.

وفرض عليّ اغترابي أن أهتم بتفاصيل لم أكن ألتفت إليها. كانت واجبات سهلة لكن الوحشة كانت هي الوحش الذي يهاجمني، ويجعل المدينة بمثابة الغابة التي لا ترحمني.

إن الذين يؤلفون الروايات عن العزلة في جزيرة نائية يتفننون في إبراز معاناة الأحادية التي تتناقض مع السمة الاجتماعية. لكن الخبرة الواقعية كثيرا ما تكون أعجب من الخيال.

فالحساسية للفراق تتفاوت بتفاوت الالتصاق الوجداني. وقد كنت أفتقد أسواري الحامية من الأقربين الذين يحنون عليّ، ولا يردّون طلبي، ولا يتأخرون عن العناية بشؤوني.

ومع تعاقب الليالي تأقلمت. واستشعرت مذاق التحدي بعزيمة صلبة لا تنثني، ولا تنحني. وأحطت معصم وحدتي بسوار المسؤولية. فواظبت على إقامة الصلاة كما كنت.

ولم أتورط في رذيلة التدخين ومزالق اللهو التي تجر من ينقاد لها حتما إلى الهاوية.

كنت أقف بعد انتهاء المحاضرات مع ثلة. وأخرج أحدهم العلبة من جيبه فقدّمها إلى الواقفين على التوالي ليتناول من يشاء منهم سيجارة حتى أتى دوري فنظر إليّ وهو يقول:

ـ مستحيل طبعا!

فاستحيت

وأطرقت

ولم أرد.

ما أجمل السيرة المحمودة

وما أحلى السمعة الحسنة

وما أبهاها.

وعندما أعلنت اللجنة المختصة باتحاد الطلاب عن مسابقة تحريرية في الثقافة العامة تقدمت إليها فجاء ترتيبي الثالث بين الفائزين. ولم تكن قاعدة "الأول دائما" مسيطرة على تفكيري. فالأسوياء يقبلون المداولة، ولا يتشبثون بالصدارة في كل مضمار.

كانت الجائزة لا تزيد على بضعة جنيهات لكن قيمتها المعنوية كانت الأهم. فقد كتب خطاط اسمي بحروف الرقعة في لوحة النتيجة المعلقة على الواجهة الوسطى لمدخل الكلية.

لوحة الشرف

الذي كان الهدف.

وفوجئت برفيق المرحلة الابتدائية كمال البغدادي زميلا ونزيلا في المدينة الجامعية.

وسرّتني زيارته.

وطوال السنوات الخمس التي قضيناها معا كان كمال خير دليل ومرشد لي. عثرت فيه على المروءة التي تجلوها الشدة. وتآخينا كما يجب للأخوة أن تكون.

وتعرفنا بالدكتور نزيه ميخائيل المدرس بالكلية. وكان من النبلاء الذين يتبسطون مع تلاميذهم. فنشأت بيننا صلة لا تخل بمقتضيات احترامنا له.

وذات مرّة دعانا إلى مكتبه. وحول الشاي والحلوى دار بيننا حوار لا يمحوه النسيان.

قال الدكتور نزيه:

ـ يقولون إن الدكتور أحمد القصبي من الإقطاعيين لأن والده كان يملك ألف فدان. وهذه مغالطة. فمصر لم تعرف الظاهرة الإقطاعية في تاريخها لأن مصطلح "الإقطاع" لا يعني الملكية الزراعية الكبيرة، وإنما يعني تجزئة السلطة إلى وحدات منفصلة يتولى حكمها أمراء لا يخضعون للحكومة المركزية. ومصر بطبيعتها كتلة لم يقسمها ذلك التفتت.

قلت:

ـ ولم تعرف مصر الانتماء الجامد إلى شريحة طبقية متبلورة لا تتغير بالحراك الاجتماعي.

قال كمال:

ـ والتعليم أقوى عوامله.

قلت:

ـ كفيل بتصعيد الطامحين.

قال كمال:

ـ وميسور لكل مجتهد.

قال الدكتور نزيه:

ـ ولم تعرف مصر التمييز العرقي على أساس اللون كما حدث في دول كانت تضطهد السود.

قال كمال:

ـ ولم تعرف العزلة الدينية والمذهبية.

قال الدكتور نزيه:

ـ إن الجسد الواحد لا يقتصر على الشعب بل يمتد ليشمل كل وافد ما لم يكن دخيلا مجرما.

قلت:

ـ أمّا من يأتي مسالما مخلصا فسرعان ما يتحول إلى قطعة منا ولو كان أجنبي الأصل.

قال كمال:

ـ إن لمصر قدرة على امتصاص الغزاة.

قال الدكتور نزيه:

ـ وهضمهم وصهر أسلحتهم.

قلت:

ـ يستنزفون ثرواتها

ويدمّرون بنيتها

فتستعيد الحيوية.

قال الدكتور نزيه:

ـ ولا يفلح معها احتلال ولا استيطان

ولا إذابة ولا استيعاب.

قلت:

ـ ومهما كان العدوان

تظل شامخة على الزمان.

قال كمال:

ـ النيل إيقونة سحرية

تطوي في مجراها لغز الهوية

المنقوش بلغة خفية

أقدم من الهيروغليفية.

قال الدكتور نزيه:

ـ أسلوب علمي متأدّب.

ثم استطرد قائلا:

ـ النيل هبة الله. والساقية دائرة مثابرة وديعة دوّارة بعطائها المتدفق، وبعائدها السخي.

تبادلت مع كمال ابتسامة ذات مغزى.

فلم يكن الدكتور نزيه يعرف أن أبي نجار السواقي.

***

مضت سنوات الجامعة متلاحقة حتى وصلت إلى السنة الرابعة فأعددت مشروع التخرج.

وعلى مشارف الامتحانات شعرت بحزن لم أفسره. كان الأسى ينساب بين ضلوعي حتى يتملك منها. ولم يكن ثمة ما يبرره. فقد كنت أستعد لنيل البكالوريوس. وهو مؤهل يفتح لي الأبواب، ويبشرني بمعيشة كريمة. وكانت علاقاتي بمن أتعامل معهم متوازنة، وظروفي مستقرة.

صورة ينبغي أن تبعث على التفاؤل

لا على الهم الجاثم.

وكانت المراسلات بيني وبين الأسرة قد تراجعت بانشغالي في تحصيل المعلومات وتنفيذ التكليفات. وهي مهمة لا تقبل شراكة في التركيز لمن يعلمون.

وفور انتهاء الامتحانات تركت العنوان وطابع البريد على مظروف لإرسال النتيجة إليّ. وحملت حقيبتي عائدا.

ومن نافذة القطار كنت أختطف المناظر كمن يقلب أوراق كتاب يتصفحه دون أن يقرأه. وكانت الخواطر تطفو على السطح، وتغوص برشاقة متعجلة كأنها أسماك في بحيرة.

سفينة شاب حالم

تبحر نحو شاطئها.

***

استقبلتني أمي استقبالا حارا.

وعانقتني بلهفة كأنها تستغيث.

وانحنيت أقبل يدها.

وبدت كما لو كانت تحميني

أو تحتمي بي.

كانت غشاوة على الدار

تلفنا بإصرار.

واستشعرت النذير

في توجس مبهم

مفعم بعبق القضاء.

فلمّا سألتها عن أبي قالت:

ـ البقاء لله. العمر الطويل لك يا حبيبي.

ولم أتمالك نفسي

فانهرت جاثيا أنتحب.

وعلمت أنهم أخفوا عني نبأ وفاته حتى لا يؤثر عليّ أثناء المذاكرة. لم أعاتبهم على حرماني من وداعه فلا فائدة. فقط ذهبت إلى قبره حيث بكيت كما لم أبك من قبل.

كان اللحد متواضعا يخلو من شاهد أو لافتة. وكانت عليه جريدة نخيل جافة وضعوها.

هكذا مدافن المساكين

خالية من الفخامة

التي تتألق في مدافن القادرين

حين يشيدونها على شاكلة القصور

وكأنهم يتشبثون بوهم العلو حتى لرفاتهم

لكن الزهد هو التعبير الأوفى

عن صفاء البرزخية

وجلال الأبدية.

كان أصعب مشوار تحالفت عليّ فيه كل وجيعة. وكانت مواساة المارة تضمد جراحي فتعاود النزف.

لم أمش في جنازة أبي.. أقرب إنسان إليّ.

ولكنني بعدها مشيت في جنازة الشيخ عبد الحميد

وشاركت في حمل نعشه إلى مثواه الأخير.

وخرجت القرية وراءه. لم يتخلف منها إلاّ المضطر.

ووقفنا في معزاه

نعزي أنفسنا

فيعز علينا العزاء.

***

وبعد تخرجي عملت مهندسا. ثم تزوجت. وكان عليّ أن أحل المعادلة. فمملكة البيت لا تحتمل أكثر من ملكة. وصحبة الوالدين تعني الملازمة، ولا تتحقق بإيداعهما في دار مسنين كما لو كانا غير مرغوب فيهما يقضيان بقية أيامهما خارج منزل لفظهما إلى معزل.

المعادلة إذن صفرية.

وحلها لا يكون بمساواة طرفيها

ولا بالهروب إلى التأجيل

أو التجهيل

أو التبديل.

الأم وصية الله

والزواج سنة الله

فكيف أستن بالسنة

دون أن أخالف الوصية؟

قلت لأمي بنبرة تدليل:

ـ ستظل مولاتي على العرش

وتأتي لبلاطها رئيسة ديوان.

وقلت للعروس:

ـ توجي سعادتنا ببر الوالدين

لنحصنها برضا الله.

واستجابت كل منهما.

ونعمت بانسجامهما.

ومضت القافلة بثلاثتنا.

وانضم إليها أبناؤنا:

نزار ومهند وجود.

ودخل نزار كلية الآداب ثم اتجه إلى الإذاعة.

وفضّل مهند كلية الفنون التي صقلت هوايته للرسم.

وأصرّت جود على كلية الزراعة وهي تقول بثقة:

ـ ألست حفيدة نجار السواقي؟

وتفانيت في العمل.

وعندما أقام زملائي حفل تكريمي بمناسبة ترقيتي قلت:

ـ أشكر لكم كريم صنيعكم.

إن الفرد ليس سوى لبنة من بنيان. وبقدر صلاح كل لبنة تكون متانة البنيان. لا سبيل لنا إلاّ أن نتماسك، وأن نتخلص من الأنانية.

فالمرء مهما أنجز مخلوق فان

والدنيا مهما أقبلت عرض زائل.

ذلك هو الميراث

الذي آل إليّ عن أبي

نجار السواقي.

***

وعشت حتى رأيت ماكينات الري تحل محل السواقي.

تطور

ولكن إلى تدهور.

لم تكن السواقي بالنسبة لي مجرد نصب تذكارية لكفاح أبي

ولهفوة قديمة وقعت فيها حين تأثرت بسخرية الصبية من حرفته

ولعرفان بجميل الشيخ عبد الحميد الذي هداني إلى الصواب

وبفضل الأستاذ علي الذي شجّعني.

كانت السواقي أكبر من ذلك

فقد كنت أعلم أن التخلي عنها

جناية على الأرض الزراعية

وعلينا.

وذات مساء جمعتني في الدوّار الكبير سهرة مع الدكتور مراد جرجس طبيب المستشفى والدكتور البيطري سالم الشامي والمهندس الزراعي حافظ المنوفي وثلاثة من الفلاحين هم: عبد الباسط منصور وزينهم المرسي والمتولي سراج الدين.

ودارت شجون حديث بيننا.

قال المتولي:

ـ تركنا السواقي جرداء مقفرة.

قال عبد الباسط:

ـ وتنكرنا لها.

قال المتولي:

ـ حتى باتت تشكو جحودنا.

قال المهندس حافظ:

ـ منذ كفّ الناس عن استعمالها تحولت القرية إلى كائن هلامي ممزق يتخبط في احتضاره.

روّعتني حدة التشبيه رغم إدراكي لخلفياته.

وساد صمت ثقيل قطعه زينهم بقوله:

ـ كانت الساقية أفضل أداة صمّمها أجدادنا.

قال عبد الباسط:

ـ كان يجب أن نعتز بها، ونستمسك بمزاياها، ولا نفرط فيها.

قال المتولي:

ـكانت صمام أمان لخصوبة الأرض.

قال زينهم:

ـ وضم الحقول في وحدة واحدة تختص بنباتات معينة نسقيها ونصونها معا.

قال المهندس حافظ:

ـ في إطار ملزم للكافة.

قال عبد الباسط:

ـ الري بالماكينات يعلي معدل المياه الجوفية.

قال زينهم:

ـ ولمّا تغرق الأرض تعدم القدرة على التنفس.

قال عبد الباسط:

ـ يجب أن تستنشق الأرض الزراعية النسيم النقي.

قال المهندس حافظ:

ـ وحرمانها منه يؤدي بها إلى العطب فتبور ببطء. وعندما تموت الفطريات التي تسهم في عملية تغذية النبات يضعف نموه.

قال المتولي:

ـ منذ تركنا الساقية تفرقنا.

قال زينهم:

ـ فقدنا العملية التعاونية التي كانت تربطنا.

قال عبد الباسط:

ـ استقل كلّ منا بماكينته.

قال زينهم:

ـ وصار بإمكانه أن يتصرف منفردا في اختيار ما يبذره، وفي توقيت سقيه ومداه.

قال المتولي:

ـ اجتمعت الزراعات المختلفة.

قال عبد الباسط:

ـ وتغلغلت الآفات.

قال المهندس حافظ:

ـ وازداد اللجوء إلى السموم للقضاء عليها.

قال عبد الباسط:

ـ وتراكمت الرواسب فيما نحصده.

قلت:

ـ وانتقلت إلى الإنسان والحيوان.

قال الدكتور مراد:

ـ فاستشرت العلل الخطيرة في أهل القرية.

قال الدكتور سالم:

ـ وكثرت إصابات الماشية.

قال المهندس حافظ:

ـ علينا أن نعتذر للسواقي عن جريمة إهمالها.

ولا يكون ذلك إلاّ بإصلاحها وتشغيلها.

قال عبد الباسط:

ـ ألا نعترف بأن نجار السواقي هو منقذ القرية؟

قال المهندس حافظ:

ـ بل منقذ مصر.

الفهرس